مصطفى الأشرف وإشكالية الهوية الجزائرية على ضوء جدلية الأمة والمجتمع

- **رباني الحاج**
- **جامعة اسطنبولي مصطفى . معسكر** Elhadj.rebani@yahoo.fr

الملخص :

تعد مسألة الهوية الجزائرية من المسائل التي أثارت جدلا بين المثقفين والسياسيين والمؤرخين، ويعد مصطفى الأشرف من المثقفين الإيديولوجيين الجزائريين الأكثر إسهاما في الموضوع، إذ أن موافقه النقدية أثارت حولها نقاشات كبيرة، لذلك طرحنا من خلال هذه الورقة البحثية مسألة الهوية وتصورات مصطفى الأشرف حولها؟

الكلمات المفتاحية : الهوية، الأمة، المجتمع.

Astract:

The question of Algerian identity is one of the most controversial issues among intellectuals, politicians and historians, and Mustafa Al-Ashraf is one of the most influential Algerian intellectual intellectuals. is monetary approval has raised great debates about it. ?

key words: Identity, Nation, Society.

المقدمة:

من المشكلات الأساسية التي واجهتها ولازالت تواجهها المجتمعات الحديثة، مشكلة الإنخراط في تاريخها والإنفتاح على تجاربها فيه، لبناء منظومة قيم تعكس روح ومسار هذا التاريخ، بدون إقصاء أو انغلاق، أو خوف من مواجهة الذات والتجرؤ على كشف عوامل بناءها وتكونها، ولو كان ذلك خارج إطار الحيز الرسمي المفروض والمتداول، مع القدرة في الوقت ذاته على التحلي بالموضوعية وعدم نفي المسلمات من أجل نفيها، بل مراجعتها وإعادة النظر فيها لمعالجة انحراف في الفهم والتصور، أصبح بحكم الزمن يبدوا قطعيا ونهائيا إلى درجة المطلق.

إن حركة التاريخ أعقد دائما من مبتغيات الذات، لأن الذات تجد في مطابقتها للصورة التي تريد أن تكون عليها تحقيقا لهويتها، تحقيقا ينفي عنها كل مغايرة أو تناقص ومعارضة، فهي تنطلق من الذاكرة التي لا تنتقي إلا ما يروقها من الماضي وتنتهي إلى حلم وأمل الإكتمال.

لكن من منظور التاريخ، الهوية، هوية أي مجتمع هي وليدة مسار جدلي مركب يصعب إختزاله في أي صورة مطابقة لما نريده ونهدف إليه، بل إن التفكير بهذه الطريقة كثيرا ما يمنعنا من سبر أغوار ودهاليز هويتنا بكل ما تعنيه من أصالة وعمق وانفتاح.

إن مسارنا كمجتمع جزائري، هو مسار بعيد في التاريخ، عرف منعرجات ومنعطفات عديدة قديما وحديثا، ولكننا نقف على الفترة الحديثة، تماشيا مع ما ذهب إليه المفكر الجزائري مصطفى الأشرف، إذ يقول "إن تاريخ الجزائر خلال القرن التاسع عشر حافل بالأحداث لمن شاء أن يستخلص بعض الأمثلة الحية عن الحركة القومية وعواملها ومقوماتها، ومما درج عليه بعض المؤرخين الفرنسيين الذين كتبوا عن عهد الإحتلال، معالجة المشكلة الجزائرية ما بين 1832 م و 1848م معالجة سطحية، مع أن هذه الفترة هي التي قامت فيها الجزائر، بعد أن شعرت بأن لها كيانا- لتدافع عن استقلالها ومؤسساتها، بقيادة الأمير. فهؤلاء المؤرخين يرون بأن الشعور الديني- أو التعصب الإسلامي، حسب زعمهم- هو وحده الذي جعل الشعب الجزائري يلتف للدفاع عن قضية تعتبر روحية أكثر مما تعتبر قومية. فالشعب- في زعمهم- لم يتحرك ضد العدوالغاصب، ولم يصمد مدة سبعة عشر عاما إلا بدافع من الدين !ولم يكن الشعب- في زعمهم أيضا- لم يكن له من محرك لطاقته الجبارة سوى التعصب !"[1]

في هذه الالتفاتة يشير مصطفى الأشرف إلى مسألة مهمة، تتعلق بميلاد الأمة الجزائرية الحديثة تحت تأثير الصدمة الاستعمارية، هذه الصدمة جعلت القومية الجزائرية تبرز إلى السطح، إلا أن الاستعمار كان له رأي آخر، يتمثل في نفي وجود كيان جزائري بالمعنى القومي والسياسي، مما جعله يضفي على حركات المقاومة طابعا دينيا محضا، على خلفية أن هؤلاء لا يدركون البعد السياسي والاجتماعي للصراع، إنما هم متعصبون لدينهم وعقائدهم الإسلامية، ويظهر ذلك من خلال التطمينات التي يقدمها قادة الجيوش الفرنسية والتي تتمثل في الحفاظ على أماكن العبادة وكل ما يرتبط بها من شعائر تعبدية، فالدين في رأيهم هو المكون الأساسي للهوية "هوية الجزائريين" وبالتالي فإن إيجاد حل للمسألة الدينية هو الحل الوحيد لضمان ثقة "أهالي الجزائريين" وتخليهم عن الإنخراط في المقاومة.

غير أن مصطفى الأشرف يرفض هذا التصور المغرض الذي كونه المستعمرون، والذي يعكس نوع من الاحتقار والشعور بالتفوق الحضاري على الأهالي، الذين يراد إظهارهم على أنهم مندفعون إلى الدين بشكل غريزي فطري متوحش لا علاقة له بالتمدن والتحضر والقيم العقلانية للغرب الأوروبي، فالعقيدة الدينية هنا تقف عائقا أمام تبلور أي وعي سياسي أو اجتماعي أو جغرافي أو اقتصادي، هنا إذن، يتم إجراء مطابقة كاملة للهوية مع الدين، وإلغاء أي تأثير للعوامل الأخرى التي قامت عليها القوميات الحديثة.

يرى مصطفى الأشرف أنه "ما من شك أن العاطفة الدينية قامت في بداية الأمر بدور هام... غير أنها لم تكن هي وحدها التي دفعت الشعب إلى الكفاح".[2]

لهذا يعلن الأشرف خلافه مع المؤرخين الفرنسيين الذين يراهم زيفوا الحقائق فهو يقول في مقدمة كتابه "الجزائر: الأمة والمجتمع"، "ومهما يكن من أمر فإننا لم نكذب على التاريخ،ولم نشوه الظواهر الاجتماعية... كل ما في الأمر أن حرصنا على دحض الحجج الباطلة، وكشف الحقائق الناصعة، وإعادة الحق إلى نصابه من الداخل، بعدما رأينا المؤرخين الفرنسيين يشوهونه من الخارج، أو يتنكرون له تماما"[3].

و هكذا، فإن الدافع إلى كتابة ودراسة الكيان الجزائري، كأمة ومجتمع، نابع من حس نقدي تاريخي واجتماعي، يرفع الستار عن بعض القراءات المغرضة لتاريخ المجتمع الجزائري من طرف المعمرين، وحتى من طرف بعض الجزائريين الذين يقومون بتعزيز النظريات الاستعمارية دون قصد منهم، باعتبار الاستعمار حكمة إلهية أو حتمية سياسية وحضارية ناتجة عن توفر عوامل القابلية للإستعمار.

يقول بختي بن عودة عن نصوص مصطفى الأشرف "إنهانصوص جسدت مفهوم الأمة، حركته من الصورة إلى المشهد، ومن العرقي إلى الأنطولوجي، ثم أنها مسلحة بالفكر النقدي رحلت صوب مفهوم المجتمع لتعطي لكلا المفهومين-الأمة والمجتمع- تلك الشمولية المفتقدة في الكثير من الدراسات والأبحاث التاريخية"[4].

ليس وحده – مصطفى الأشرف – من يرى أن "الدراسات حول الجزائر اتسمت في أغلب الأحيان بالتشويه والتحريف. وقد نتج عن ذلك شعور بالاستياء والحقد لدى الجزائريين شكل بدوره عقبة أمام دراسة المراحل التي تمخضت عنها القومية الجزائرية دراسة هادئة موضوعية"[5].

هذا ما يذهب إليه محمد حربي (1933) في أبحاثه ودراساته حول القومية الجزائرية، فعلى عكس ما يذهب إليه الكثير من المنظرين والإيديولوجيين يرى هو "أن الوعي القومي والشعور بالإنتماء إلى وطن واحد كانا موجودين عند الكثير من المثقفين، لكن البون شاسع بين أفكار هؤلاء والواقع المعاش المفروض على الشعب. ففي سنة 1830 م لم يكن سكان الجزائر يعتبرون أنفسهم جزائريين، ذلك أن كل فرد كان ينتمي أولا وقبل كل شيء إلى مجموعته الضيقة:

العائلة أو الرابطة الحرفية أو القبيلة أو الطريقة الصوفية أو الجماعة الدينية والثقافية (أهل السنة، الإباضية، اليهود) أو الرابطة اللغوية (عرب، بربر، أتراك)، فأناس ذلك العهد لم يطرحوا القضايا بالصيغة التي ينسبها لهم مفكروا الاستعمار وفي سياقهم مفكرو الحركة الوطنية الذين فتنتهم مفاهيم العرق والدولة المركزية والأمة"[6].

يتقاطع مصطفى الأشرف مع محمد حربي في دور الصدمة الاستعمارية في إيقاظ الوعي القومي لدى الجزائريين، لكنه لا يتوافق معه في القول بالغياب تام لأي وعي سياسي، والحقيقة لو دققنا بشكل أكثر وضوحا، لقلنا أن ما يعتبره الأشرف، انعكاسا لوجود وعي سياسي حتى قبل الاحتلال، يراه حربي محصورا في فئة نخبوية ومثقفة محدودة بعيدة بأفكارها عن الواقع الحقيقي السائد أنذاك، إلا أن الأشرف يشير إلى أنه "يمكن القول إذن بأنه كان يوجد وعي سياسي، وكان الجزائريون غير غافلين عما يجري في أوربا... وبطبيعة الحال، ما من شك أن الأمور كلها نسبية. ولكنه يطيب لنا أن نلاحظ قبيل الاحتلال، بأنه يوجد في الجزائر التي كانت متفتحة على الخارج، يوجد فيها رجال مطلعون على تيارات الفكر المعاصر، وعلى الأحداث الدولية، أو على الأقل، على الأحداث الجارية في بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط، وفي أقطار المشرق".[7]

لم يكن الجزائريون يجهلون، جهلا تاما ما يجري من أحداث وما يدور من أفكار في الغرب الأوروبي وفي المشرق العربي وبالتالي لم يكونوا متعصبين ومنغلقين على عقيدتهم الدينية: فالجزائريون- كغيرهم من الشعوب التي اعتنقت الإسلام أو غير الإسلام من الديانات الأخرى، وتعرضت للغزو الأجنبي، وقاومت وحاربت أعداءها في الداخل وفي الخارج- هؤلاء الجزائريون، كغيرهم من الشعوب، قد استجابوا لمختلف الاعتبارات، من سياسية واجتماعية وإيديولوجية وعاطفية، وهذه الاعتبارات جعلتهم يحددون مواقفهم المعادية للإمبريالية- فكانوا في صف الأمير، بل وقف البعض منهم ضده. تلك هي الاعتبارات التي يجدر بنا أن نتناولها بالبحث في نظر مصطفى الأشرف"[8].

فالأمر إذن لا يتعلق بتعصب ديني ولا بفقدان تام لأي حس قومي أو وعي سياسي، وإنما ككل المجتمعات، هناك عوامل مختلفة ساهمت في إرساء هوية كيان جزائري مستقل بذاته، فكما يقول محمد حربي "إن الاستعمار لم يضع الجزائر. فقد كان للبلاد قبل مجيئه، دينها وموروثها الثقافي، كما نسجت المحن المشتركة روابط عدة، لكن كل سبب من أسباب الوحدة هذه لم يصبح عاملا مؤثرا إلا بعد سنة 1830، ذلك أن الوعي القومي واللغة والدين لم تتبلور كمكونات للشخصية الوطنية إلا داخل حلبة الصراع ضد فرنسا المحتلة، فالوعي القومي يتعارض والعقلية القبلية ويتنافى مع الحزازات والتنافس الغالبة على حياة المجموعات الأصلية التي ينتمي إليها الأفراد. يمكننا إذن أن نقول دون حرج، إن الاستعمار كان أحد العوامل المؤثرة التي أدت إلى ظهور الجزائر وإن النظام الذي أقره كان بمثابة الكاشف لها"[9].

فتحقيق الوحدة والشعور بالإنتماء إلى كيان جزائري واحد، كان للصدمة الاستعمارية فيه دور، لذلك كانت الدولة الاستعمارية الفرنسية، تعمل على استخدام المبدأ المعروف لإضعاف هذه الوحدة وهو مبدأ "فرق تسد" أي ضرب مكونات المجتمع الجزائري ببعضها البعض، من أجل تفتيت الوحدة، ووصف كل حركة مقاومة بالتعصب والإنغلاق و الإندفاع ضد الاستعمار دون وعي بالأهداف التي تسعى إلى تحقيقها.

من هنا يستبعد مصطفى الأشرف قضية التعصب الذي يفترض فقدان أي وعي سياسي، وذلك للأسباب التالية: "الجزائريين قبل الإحتلال، بالرغم من أنهم كانوا منضوين تحت راية الدولة الحاكمة كغيرهم من الرعايا المسلمين، إلا أنهم لم يترددوا في التمرد ضد العهد القائم، لشعورهم بأنهم ينتمون للرابطة المغربية، من جهة، ولأنهم من جهة أخرى، كانوا دائما يشعرون بالحاجة للقيام بثورة سياسية... كذلك كان الجزائريون يفرقون في

علاقتهم مع الأتراك بكل وضوح، بين الشريعة والإخاء في الدين من جهة، وبين المتطلبات القومية والسياسية من جهة أخرى، هذا إضافة إلى استخدام الأمير عبد القادر لليهود في بعض المأموريات السياسية الهامة جدا بالنسبة لمستقبل الدولة الجزائرية الفتية، لدليل آخر على أن فكرة التعصب غير معقولة"[10].

كل هذه الأسباب، تبين إلى أي حد كان الجزائريون يحوزون على وعي سياسي، ويميزون في علاقتهم مع غيرهم بين الرابطة السياسية والرابطة الدينية والحضارية، وبالتالي فهم لم يقفوا ضد الاستعمار. فقط وفقط مدفوعين بالعوامل الدينية، إنما كذلك من منطلق قومي وطني، دفاعا عن أعراضهم وأملاكهم وحرياتهم "ففي سنة 1844م، سئل أحد رؤساء منطقة القبائل لماذا دافعوا بضراوة عن قراهم ضد جيش كامل قاده بيجو نفسه، فأجابوا "كنا مستعدين أن نستسلم بعدما شاهدنا ذلك الجيش الجرار، إلا أن نساءنا اللواتي سئمنا ميلنا إلى طلب الصلح، أقسمن اليمين على أن يخرجن على طاعتنا إذا لم ندافع عن أنفسنا مهما يكن من أمر"[11].

هذه إشارة مهمة إلى دور المرأة وقوة حضورها في مخيال المجتمع وهي أيضا إشارة إلى مشاركة المرأة في بناء هوية المجتمع الجزائري، وقوة تأثيرها على الثقافة الذكورية لهذا المجتمع، فهي بسلطتها الرمزية تستطيع تغيير مسار قرارات ذكورية تبدوا منطقية وعقلانية، وهو الأمر الذي قد لا تلعبه المرأة في المجتمعات ذات الطابع الحداثي أين أصبح للمرأة هي الأخرى سلطة مادية مثلها مثل الرجل، وبالتالي مثل ما تحررت هي من سلطته المادية، تحرر هو بدوره من سلطتها الرمزية والمعنوية.

فهذه السلطة، سلطة المرأة، ليست نابعة ضرورة عن عاطفة دينية، إنما هي ناتجة عن ثقافة مرتبطة بقيم الشرف والمروءة والرجولة وما تفرضه من عزة نفس واعتزاز بالإنتماء إلى الكيان الجزائري ماديا ومعنويا، فهؤلاء هم سكان منطقة غريس بمعسكر يردون على –المارشال بيجو- قائلين "نقسم بالله أنه لن يكون بيننا وبينك لقاء إلا في ميادين القتال.... وحتى لو بقيتم ثلاثة قرون كالأتراك، فلابد من أن تخرجوا. وهل يخفى عليك أن بلادنا تمتد من وجدة إلى تونس، وأنها تضم الجريد والتل والصحراء، وأن المرأة عندنا قد تقطع وحدها كل هذه المناطق الشاسعة من غير أن يصيبها أي سوء من أحد، وأن نفوذكم لا يتجاوز التراب الذي تدوسه أقدام جنودكم؟ ولكي تتأكد من هذا، ما عليك إلا أن تذهب إلى الصحراء، فسوف ترى كيف أن سكان الجزائر ووهران ومستغانم يجردون من أرزاقهم ويقتلون تقتيلا على أبواب هذه المدن"[12].

إن هذا الرد يعكس، ارتباط الجزائريين، بكيانهم القومي من خلال الاستماتة في الدفاع عن الأرض والعرض، فالإمتداد الجغرافي هو الأرض، وما تحمله من قداسة ورمزية وامتداد في القوة والسيطرة والحضور المادي لهذا الكيان، أما المرأة فهي رمز القيم الاجتماعية والأخلاقية، رمز للإحترام والتقدير والتقديس والحرية، فالهوية بهذا المعنى، هي هوية أعمق من مجرد هوية دينية خالصة، إذ حتى الأتراك ورغم المدة التي بقوا فيها على هذه الأرض، ظل الجزائريون ينظرون إليهم، إخوة في الدين، لكنهم عابروا سبيل أي ليسوا جزءا من الكيان الجزائري رغم طول مدة استقرارهم هنا، ورغم صلاح وتقوى كثير من الدايات ودفاعهم عن الجزائر حتى آخر رمق مثل ما فعل الداي حسين وهو آخر الدايات الأتراك.

ومع ذلك يشير، محمد حربي، إلى أن "الجزائر في بداية القرن العشرين كانت في مفترق الطرق. فالأسئلة التي كانت مطروحة أنذاك هي "من نحن؟"،و"أي طريق نتبع؟"...فكل حركة وكل حزب وكل جمعية ثقافية كان لها نظرتها ورؤيتها لمستقبل البلاد، وكانت أفكارها متأصلة في أوساط محدودة لكنها تعبر عن قوى عميقة. إلا أنه يرى أن ما يهمنا، ليس تاريخ هذه الأفكار وإنما تاريخ التصورات الذي من شأنه أن يقدم لنا عرضا لحركية الجزائر وتناقضاتها وانغلاقاتها"[13].

إذن فالقول بوجود كيان جزائري متمايز عن الكيانات القومية الأخرى، لا يعني الإنغلاق والحسم النهائي على مستوى هوية هذا الكيان بالصورة التي يراها البعض، من الذين يرون أن كل اختلاف هو انسلاخ عن الهوية بشكل مقصود وتعسفي خارج قوانين الحراك السياسي والاجتماعي لأي مجتمع، وهذا ما يذهب إليه، أو ما نفهمه من قول أحدهم وهو السيد أحمد بن نعمان "يجب التذكير هنا بأن الشيوعيين الجزائريين (شأنهم في ذلك شأن زعمائهم الفرنسيين كانوا يعارضون مفهوم "الأمة الجزائرية" الموجودة والمكونة أصلا قبل أن توجد الأمة الفرنسية ذاتها.

وإنما كانوا يدافعون عن شعار "الأمة الجزائرية في طور التكوين" ابتداء من التعايش على نفس الإقليم لمختلف الفئات السكانية، (أو الجاليات): اليهودية، القبائلية، الميزابية، الشاوية، الإيطالية، المالطية، الاسبانية، الفرنسية، العربية... رافضين هكذا الثوابت الأساسية التي أقرتها أحزاب الحركة الوطنية بالإجماع كمبادئ مقدسة، جندت من حولها الشعب الجزائري طوال سنوات المقاومة والكفاح ضد المحتل في كافة أنحاء الوطن، وهما: العروبة والاسلام.[14]

بعيدا عن فكرة أمة جزائرية في طور التكوين، فإن حصر الهوية الجزائرية في العروبة والاسلام، واعتبارها امتدادا للقويمة العربية والإسلامية بشكل مطلق، بدوره يلغي حركية الأمة الجزائرية وخصوصيتها في التاريخ، هذا ما دفع، حربي، إلى القول، بأنه يمكن إجمال الحركة الفكرية في تيارين "تيار يبحث في تاريخ الجزائر عن مقابلات لما وقع في أوروبا وآخر يؤكد على الفروق ليرقى بالوعي إلى ما يميز الجزائر عن غيرها.

كان المستغربون "الليبراليون" منهم والشيوعيون، معاقين بسبب طريقتهم في تناول المسألة القومية وفي التعامل مع الأرضية الثقافية، أما أنصار الأصالة الجزائرية من مسلمين جزائريين وقوميين، فبالرغم من طرحهم طرحا سيئا لمسألة طبيعة المجتمع الجزائري وطرق تقدمه، أفادوا كثيرا من تطابق خطابهم مع أحاسيس الشعب ومشاعره، فنشاطهم وقدرتهم على جر الجماهير وراءهم تتولد من الحركة نفسها، الشيء الذي أكسبهم فعالية ونجاعة لم تكن لخصومهم"[15].

إن هذا الإنقسام، يعكس موقفين متناقضين من هوية المجتمع الجزائري لكنه إنقسام بقدر ما كانت له نتائج سلبية على المجتمع بقدر ما كانت له نتائج إيجابية، فكل توجه فكري، ساهم في تحريك المجتمع الجزائري، وعمل على نقد جوانب غير عقلانية في ثقافته وواقعه الاجتماعي والسياسي، هذا التدافع والتصارع بين أنصار الأصالة وأنصار المعاصرة، هو ما أدى إلى نضج المجتمع الجزائري، رغم أنهم كانوا بعيدين عن إدراك الواقع الحقيقي لهذا المجتمع بسبب اختياراتهم الإيديولوجية.

يشير مصطفى الأشرف إلى دراسة تبين طبيعة القومية الجزائرية التي تقوم أساسا على الإنفتاح والوعي السياسي ورفض العنصرية والتعصب الديني، ففي هذه الدراسة "شرح لموقف القومية الجزائرية من مشكلة العنصرية، وهو موقف الإدانة، لما فيها من رجعية ونزعة عدوانية واحتقار للإنسان. وفيها أيضا شرح لموقف الحركة من الدين "الذي يقوم بدور ثانوي"، لأن "المواجهة لم تعد كما كانت في الماضي، بين المسلم والمسيحي، بل أصبحت بين المستعمر والمستعمر"...، ولأن "الجزائري يميز تمييزا واضحا بين الشعور القومي والشعور الديني، بمعنى أنه قبل كل شيء جزائري، أي إبن الأمة الجزائرية وحامي غمارها، وأن جزائريته هذه ليست منبثقة من الدين ولا مشتقة من العنصرية"[16].

تنفي هذه الدراسة التي ظهرت قبيل الثورة، أي تعصب أو عنصرية عن القومية الجزائرية. فهي قومية متفتحة ومتسامحة ترفض الإحتلال والاستعمار والاستغلال داخل المجتمع والتبعية للخارج.

لكن الباحث السوسيولوجي، عدي الهواري، "لا يرى أن الوطنية الجزائرية غير ذات صلة بالتيار الديني، ومن يقول بذلك، يخالف الواقع في نظره، لأن كلا منهما، نتج عن ما يطلق عليه إسم "النهضة" في العالم العربي والإسلامي، وبالتالي "فالوطنية في العالم الإسلامي، سيتم طبعها بهذه البنية الثنائية، واحدة تركز على الأصالة والأخرى على التحديث، وعليه فليس هناك وطنيتين مختلفتين، إنما هناك وطنية واحدة ذات وجهين"[17].

إذن هناك تداخل بين الديني والسياسي في جوهر القومية الجزائرية، حسب هذا الموقف، لذلك، فالإسلام السياسي هو في صميم القومية الجزائرية، ومنه تداخل الثقافي والسياسي في تكوين هذه القومية.

وهذا ما يعكسه، بيان أول نوفمبر 1954 الذي يحدد كهدف أساسي له "بناء دولة جزائرية، ذات سيادة، ديمقراطية واجتماعية في إطار المبادئ الإسلامية"[18].

فهذا البيان هو بمثابة إعلان عن مقومات هوية جزائرية تجتمع فيها كل عناصر الحركة القومية، الجزائرية التقليدية والحديثة معا.

لهذا يقول مصطفى الأشرف "وهكذا، فإن الإلتزام السياسي، والنضال في صفوف الأحزاب القومية المتواجدة قبيل الحرب العالمية الثانية، هما من العوامل الجديدة، التي طرأت على الوضعية الفكرية التي لم تكن تخلو رغم ضبابيتها من شيء من الجرأة. وقد نجم عن ذلك أن المعالم الرئيسية للثقافة العامة أخذت تتضح وتنتقل من الخيال والتجريد العقيم، إلى البحث عن مضمون نافع ومفيد، وتعبر تدريجيا عن الحقائق الاجتماعية، وتتخلص من بعض القيم البالية[19].

وهكذا "فالحركة القومية إذن، بما فيها من جانب عاطفي، استطاعت إلى حد ما أن تصنع هذه "الثقافة" السياسية التي أخذت بحكم الضرورة تمارس نشاطا حثيثا في إطار النضال ضد الاستعمار، وبذلك اكتسبت طابعا جزائريا صرفا. وقد اتخذت الفرنسية كلسان للتعبير في أغلب الأحيان. أما بالنسبة إلى العربية، فإنها تخصصت في التعبير عن الفكر الديني المناضل المتأثر بالحركة الإصلاحية[20].

هذه الإزدواجية اللغوية التي تقوم على الفصل بين لغة الدنيا ولغة الآخرة، والتي رأى فيها البعض، تفضيلا مقصودا للغة الفرنسية على العربية، يراها مصطفى الأشرف غير موضوعية، لأن الجزائري لم يتخلى عن

العربية، لأنه لم يكن يملكها أصلا بفعل الظروف الاستعمارية التي منعته من تعلمها، وربما صح القول هنا "بأن الناس، من حيث لا يشعرون، كانوا متأرجحين بين الأمة، كشعار، وبين المجتمع كواقع حي. إن الإستلاب في حد ذاته أمر غير وارد في هذا المجال، وذلك أن الجزائريين لم يكفوا أبدا عن استعمال لغاتهم الدارجة، وبقي لهم رصيد كبير من القيم الإنسانية المتناقلة بالسماع. إن بعض أصحاب الثقافة العربية، من الجزائريين المغتربين في المشرق، عملوا على إيهام رجال الفكر في تلك البلدان الشقيقة بأن الاستعمار الفرنسي أفقد الجزائر كل شيء، وحرمها من استعمال لغاتها الدارجة"[21].

يرى الأشرف أن بعض حملة الثقافة العربية، استغلوا الوضع المتراجع للعربية الفصحى، لنفي كل أصالة لغوية أو هوية لغوية عن واقع المجتمع الجزائري، وهذا ينافي الواقع ولا يعبر عن حقيقته، "إن أصحاب هذه الذهنية المشوشة، القاصرين في أغلب الأحيان عن فهم أبسط الأمور في بلادهم، لا يكاد الواحد منهم يتعلم الفصحى وماضيها (الذي يتصورونه، تصورا صبيانيا) حتى تجده، بسبب بعده عن الواقع وقلة ذوقه، يحتقر العربية الدارجة لدى الشعب، ويتشدق بعبارات منتقاة تدل على الغرور. وقد نسي هؤلاء بأن أعضاء مجمع اللغة العربية أنفسهم، ورجال الثقافة في مصر، يتحدثون خارج عملهم، بل وحتى في مؤتمراتهم، بالدارجة، من غير تصنع ولا حرج"[22].

هكذا يؤكد مصطفى الأشرف على ضرورة الإنفتاح على حركة المجتمع بدل الوقوف عند حدود التصور الطوباوي للأمة ذات الهوية الكاملة التي لا تتأثر بأحداث التاريخ الفعلي ولا تراعي ضرورات الواقع الإجتماعي، وتريد أن تبقى دائما متعالية عن ما يجري فيه من صراعات وتناقضات بين عوامل مختلفة ومتعددة، مكتفية بذلك بالعوامل العاطفية دون العوامل العقلانية والموضوعية.

ولهذا، ففي المسألة اللغوية، "لا يجوز انتقاص اللغة الدارجة شأنها بالموازنة بينها وبين الفصحى، كما لا يجوز أن نعتبرها لغة صالحة للتدريس والتعليم، على أن الثابت هو أنها أداة طيعة للتفاهم في المجتمع الجزائري، ووسيلة ممتازة بواسطتها، تكتمل الثقافة القومية، إذ تحتوي على مجال هام، هو مجال التعبير الشفوي"[23].

لا يرى مصطفى الأشرف في العلاقة بين اللغة الفصحى واللغات الدارجة، علاقة صراع، إنما لكل لغة مجالها الخاص بها، وبهما معا تكتمل أداة التعبير عن القومية والهوية الجزائرية، أما الفرنسية فهي من باب الضرورة التي أملتها الظروف التاريخية وهي وسيلة للتعبير عن الأفكار والثقافات الأخرى، رغم أنها فرضت على الجزائريين بالحديد والنار، ومع ذلك "فهي لازالت تتراوح في مكانتها بين اعتبارها لغة ثانوية وبين اعتبارها لغة أجنبية ذات امتياز خاص، وهي تتراوح بين الرفض الرسمي لها، وبين الاستخدام اليومي والعملي لها"[24].

إن حركية المجتمع، تختلف عن طوباوية الأمة، في نظر مصطفى الأشرف، فالتنظيم الإيديولوجي شيء، والقبض على طبيعة المجتمع من خلال رصد كل العوامل المتفاعلة والمؤثرة فيه شيء آخر، كثيرا من الإشكالات التي أشار إليها -مصطفى الأشرف- لازالت تلقي بظلالها على المجتمع الجزائري إلى اليوم، المدينة والريف، الثقافة التقليدية والثقافة العصرية، الدين والسياسة، اللغة والهوية، الدولة والمجتمع، الأمة والمجتمع، الوطنية

والقومية. والحقيقة أنه انحاز إلى المجتمع بثراءه وتنوع فواعله بقدر ما كان يرغب في أن تنتقل الأمة من الطوباوية والخيال إلى الواقع الفعلي للمجتمع الجزائري.

الاحالات و الهوامش:

1 – مصطفى الأشرف- الجزائر، الأمة والمجتمع. ترجمة حنفي بن عيسى، مؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983. ص ص 46- 47.

2 – مصطفى الأشرف، المرجع السابق، ص47.

3 – المرجع نفسه، ص05.

4 – بختي بن عودة، رنين الحداثة، رابطة كتاب الإختلاف، وزارة الإتصال والثقافة، ط1. 1999، ص 57.

5 – حربي، الثورة الجزائرية، سنوات المخاض، ترجمة نجيب عياد، صالح المثلوثي، موفم للنشر- سلسلة صاد، إشراف علي الكنز، 1994- ص100.

6 – محمد حربي، المرجع السابق، ص 101.

7 – مصطفى الأشرف، المرجع السابق، ص 48.

8 – مصطفى الأشرف، المرجع نفسه، ص48- 49.

9 – محمد حربي، المرجع السابق، ص101.

10 – مصطفى الأشرف، المرجع السابق، ص ص 49 - 50.

11 – المرجع نفسه، ص121.

12 – مصطفى الأشرف، المرجع السابق، ص ص 134، 135.

13 – محمد حربي، المرجع السابق، ص106.

14 – أحمد بن نعمان، فرنسا والأطروحة البربرية، الخلفيات، الأهداف، الوسائل والبدائل، دار الأمة، ط2، الجزائر، 1997. ص 28 .

15 – محمد حربي، المرجع السابق، ص ص 106- 107.

16 – مصطفى الأشرف، المرجع السابق، ص ص 257- 258.

17 - Lahouari Addi- l'algérie et la démocratie pouvoir et crise du politique dans l'algérie contemporaine, éditions la découverte, paris, 1995, pp 16-17.

18 - Gilles Mancéron, Hassan Remaoun : D'une Rive à l'autre. La guerre d'Algérie de la mémoire á l'histoire, Syros, Paris, 1993, p129.

19 – مصطفى الأشرف، المرجع السابق، ص422.

20 – المرجع نفسه، ص 423.

21 – المرجع نفسه، ص 430.

22 – مصطفى الأشرف، المرجع السابق، ص 431.

23 – المرجع نفسه، ص432.

24 - Hassan Remaoun : L'Algérie histoire, société et culture,Casbah édition, Alger, 2000, p68.